للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٦ —

« لايؤاخذني القارىء بما أخذت به نفسي من الترتيب في هذه المقالات ؛ فقد يبدو لكثير من القراء أني أسير على غير منهاج واضح حين أجمع بين الحديث عن الرافعي الشاعر ، والرافعي الأديب ، والرافعي في أهله ، أو حين أثب من موضوع إلى موضوع لايمت إلى سابقه ولا يصله به سبب .

« وعذري الذي أقدمه إلى القراء من هذا الخلط هو أني أسير في تاريخ الرافعي على الترتيب الزمني لا ألتفت يمنة ولا يسرة إلى غيره ؛ فأيما حادثة اعترضت حديثاً وجرت في زمانه تناولتها ، حتى لايفوتني شيء مما أريد إثباته ، فأسير مع الحادثة من حيث تبدأ في زمانها وأنتهي بها حيث تنتهي من تاريخه ، ثم أعود إلى ما كنت فيه على حساب السنين ؛ فهذا من هذا ؛ وللباحث من بعد أن يجمع عناصر موضوعه على ما يشتهي ويتناولها من حيث يريد »

شعراء العصر في سنة ١٩٠٥

قدّمت الحديث في الجزء الرابع من هذه المقالات عن شيوخ الرافعي في الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم ، أو جرى معهم على سَنن . وأثبتُّ ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته إلى الكفاح حَسْبَه إلى استكمال أسباب الغلبة بعقد الأواصر وإنشاء المودّات والدعاية لنفسه . ثم بينتُ ما كان بين الرافعي والكاظمي من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت في آخرة القول : هل من صلة بين الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان للبارودي وحافظ والكاظمي من شعراء العصر أثر في شعر الرافعي ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟

على أن الباحث المحقق لايقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافعي الشاعر في أول هذا القرن ، وأوّلُه حافل بثُلّة من الشعراء لم يجتمع مثلهم في زمان في بلد ؛ فما مبلغ تأثر الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هنا أدع للرافعي نفسه أن يتحدث ، وما حديثه هذا إلا طرف من الدعاية التي كان يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل الذي يطمح إليه . وإنه ليكشف عن شيء من خلق الرافعي وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويدل على قوة الرافعي وعنفوانه وشدته في النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافعي في النقد .

إن أدباء العربية عامة لايعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرةً من الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فالخصومة بين الرافعي وطه ، وبين الرافعي والعقاد ، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي ، وبينه وبين غير هؤلاء — هي خصومة مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل ، مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ النقد في العربية.

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الرافعي الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه في النقد ، شدةً حبّبتْه إلى الكثير ، وألّبتْ عليه الكثير . على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥

* * *

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا بتوقيع (*) وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ، وليبلغ به مبلغه في الدعاية لنفسه ، فقد جعل نفسه في الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كل من يعرف الرافعي من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب :

الكاظمي ، والبارودي ، وحافظ ، والرافعي ...

وفي الطبقة الثانية على الترتيب :

صبري ، وشوقي[1] ، ومطران ، وداود عمون ، والبكري ،

(١) لم يثبت الرافعي طويلا على هذا الرأي في ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه في آخرته

ونقولا رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال ابراهيم ، ثم ... حفني ناصف !

وفي الطبقة الثالثة :

الكاشف، والمنفلوطي، ومحرم ، وإمام العبد ، والعزبي، ونسيم.

ثم ألحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد ابراهيم ، ومحمد النجفي

وقد افتتح الرافعي مقاله بما يأتي :

« قرأت في بعض أعداد (الثريا) كلمة عن (الأدب قديماً وحديثاً) فقلت : كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كأن رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما خدش بين حجرين ؛ فقلت : إني أنظم الشعر فأسرّ ، وأقرأ عنه فأسرّ ، فمالي لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء ، كما يتنافسون في ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا في الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر، ولا أكثر هؤلاء أمير

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرأونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرأوا فاتحته . فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف الأسماء . فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط المتاع . على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي وكتبي إلى أصحابي القليلين ، وفي سجلّ بعض الجرائد والمجلات ، فليطلبني القاريء ما ضرب على رأسه الظن

« وسأذكر في هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بي اسمه من الشعراء ، وأقطع عليه رأيي ، فإما وسمه فكمل به ، وإما أظهره كما هو في نفسه ، لا كما هو عند نفسه ؛ ولذلك فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت في تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة »

ثم كتب رأيه بعد ذلك في كل شاعر ممن ذكرت مقتبساً من شعره مستشهداً به على ترتيبه في موضعه من طبقته

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ :

« ... وأكثر شعره في هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل ... والذين لم تستقم ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقيم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا في اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون (شوقي) عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجمل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر (يعني نفسه) كما أسمع عنه ، فإني أكون قد ظلمته إذ لم أقدمه عن هذا الوضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ، ولذلك فإني لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان فتي أو كهلا ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظمه في عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر في بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقريظاً مسهباً جداً للجزء الثاني من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم في الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ...

« ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهي غوصه على المعاني في الأغراض التي لم تطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

وقال عن شوقي :

« سيأخذ بعض القراء العجبُ إذا رأى شوقي بك ثاني الطبقة الثانية وهو هو (شوقي بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية) ؛ ولكنا نعجب أكثر منه إذ رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكيات ؛ فأي ذوق سليم يطمئن لهذه المعاني المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قضى أريحيُّ القوم » وغيرها ، ولا أدري لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن (صبري وسلمان) كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجيزه به ولا أرفضه ...

« ... وإنما اشتهر قديما يوم كان الكاظمي في العراق والبارودي في سيلان ، وصبري من مهذبي شعره على ما يقال وحافظ في السودان ، والرافعي لم يقل الشعر بعد — على ما قيل

لى ! — وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية على نحو مايذكر النحاة فى باب (الجر) بالمجاورة ... »

وختم المقال بقوله :

« ... وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب إليهم أن يخفضوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير ، ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأيى ، فليبق كلٌّ فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »

وذيّلته مجلة (الثريا) بما يأتى :

« ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخماً وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« ... دونك مقالةً بكراً لم يُنسج على منوالها بعدُ فى العربية ، حَرِيّة بأن تصدّر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يروعنّك شدة لهجتها فكلها حقائق ثابتة ، وإن آلمت البعض فان الحق أكبر من الجميع ؛ وإنى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، أنا كفء للجميع ؛ وما إخال أحداً يستطيع أن ينقض حرفاً مما كتبته ، وإن هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك قراراً بأنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمى ، فأنا ابن جَلا وطَلّاع الثنايا ؛ انظر إلى ما قيل وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتى فنشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط .

« وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستّروا ، فإن الموضوع لىّ شهىّ ، وفى إطلاقك الحرية للكتّاب ما ينشط بهم لحرية لجولان فى هذا المضمار »

قالت الثريا : « وقد تصفحنا المقالة فراعتنا شدة لهجة الكاتب تنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا بل لنشرها ، إن لم يكن لشئ فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار حول الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر فى هذا العصر ؛ فأقدمنا ى نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير متحملين تبعتها ؛ لكتاب الأدباء الحرية فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل ردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم

« ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يُهدّم ، ومن لا يَظلم الناسَ يُظلَم[1] »

* * *

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعى دراسة أوسعَ قائمةً على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح :

أولاً : إنه أول ما أنشأ الرافعي فى النقد ؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التى قامت بين الرافعى ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى النقد أن يبدأ من هنا

ثانياً : إنه ثَبْتٌ جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعى فى جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلابد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء.

ثالثاً : إن فى هذا المقال لوناً من ألوان الدعاية التى كان يقوم بها الرافعي لنفسه ليبلغ إلى الهدف الذي كان يرمي إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعى إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد فإن فيه شيئاً من أخلاق الرافعى المزهوّ بنفسه ، المعتدّ بعلمه ، القوىّ بإيمانه ، المتفحّم على مواطن الهلاك ؛ الرافعى القزم الضعيف الذى وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العالقة على القمة : إنزلوا إلىّ أو أصعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادى أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ولا يسمع لكم صريخ ... !

الرافعى ...؟ لقد كان الرافعي طويل اللسان من أول يوم ...!؟

« سيدى بشر »

محمد سعيد العريان

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر . وقد تحدث عنه المرحوم الرافعي مرة إلى قراء الرسالة ، فى العدد ١٠٩ فى مقال بعنوان (كلمات عن حافظ) وصف فيها أثره وما أحدث من ضجة بين الشعراء ؛ فليرجع إليه من شاء .

على أن الرافعى لم يصرح فى ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك أن ينفيه عن نفسه ، وإن كان معروفاً لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب الرافعى لايخفى على أحد من قرائه .

وقد ذكر الرافعى أن هذا المقال نشرته الثريا فى سنة ١٩٠٣ وهو سهو حقيقته ما ذكرت .